إشكاليّة المصطلح في اللّسانيّات والسّيمَائيّات
-بحث في المفاهيم ومُساءَلة عن عِلَل الاضطراب-

أ. د. عبد المالك مرتاض

جامعة وهران

لا ريب في أنّ لهذا الاضطرابِ في استعمال المصطلح اللّسانياتي والنّقديّ في العالم العربيّ، خصوصاً بين المشارقة والمغاربيّين (نسبة حديثة إلى بلدان المغرب العربيّ للتّدقيق ودفْع الالتباس بين «المغرب» و«المغارب») من وجهة، وبين المغاربيّين والمغاربيّين من وجهة ثانية، وبين المشارقة والمشارقة أنفسِهم من وجهة أخرى: عِللاً كثيرةً نحاول نقاشَ بعضِها في هذه المقالة القصيرة. ولقد يبلغ هذا الاضطراب، في بعض أطواره، الحدود المحيّرة، في التّباعُد والاختلاف في استعمال المصطلح اللّسانيّاتي والنّقديّ والسّيمَائيّ معاً، عبر الكتابات العلميّة العربيّة المعاصرة. ولعلّ من أسباب هذا الاضطراب:

1 ـ غياب المؤسّسات الأكاديميّة المتخصّصة، والمهتمّة بحقل المصطلح المتمحّض لجميع حقول المعرفة بعامّة، والمصطلح اللّسانياتي والنّقديّ الدّقيق: السليم نحويّا، والدّالّ اشتقاقيّا، والرّصين معرفيّا، بخاصّة. ذلك بأنّ الأكاديميّين، أو المجمعيّين العرب الرّسميّين: كثيرٌ منهم ليسوا في أماكنهم -نقول ذلك والأمر لله تعالى! - حيث إنّ مراسلي المجامع لا يراعَى في اختيارهم الشّروط العلميّة الحقيقيّة، ولكن الشروط السّياسيّة، أو ما يشبه الشّروط السّياسيّة، غالباً. وإذا كان هناك من استثناء في هذا الحكم فهو لا يرقَى إلى الحدّ الذي يستطيع تصحيح القاعدة!... وربما يُعَيَّن في طبقة المراسلين مَن لا علمَ له بالعربيّة، ومن لم يشتغل بتحقيقها، ولا بضبْط أبنيتها قطّ... وهذه السّيرة الْمُزرية التي آل إليها بعض هذه

المجامع العربيّة التي تكابد الخمول والكسل هي التي أغرت أعداءَ اللغة العربية في المشرق والمغرب لِيُنادُوا بإحلال اللغات الأجنبيّة محلّ العربيّة في تدريس العلوم والطّبّ والرّياضيات والإعلاميات وغيرها، في آخر هذا الزّمان؛ بل، قدْ، لن نعدَم في المستقبل، إن مضت الأمور على ما هي عليه من السّوء في بعض أقطار المغرب العربيّ خصوصاً، أن يُعمَد إلى تخريج الأئمّة وتأبين الموتى والترحّم عليهم بإحدى اللّغات الأجنبيّة؛ وذلك كلّه بحجّة تخلّف اللّغة العربيّة عن ركْب الحضارة، وعجْزها عن مُواكبة العصر، فيما يزعمون!...

ولكن لولا خمولُ المجامع العربيّة لَمَا ارتفعت هذه الأصوات النّاشزة المبحوحة، والْمُريبة المشبوهة، والتي لا تزال تطالب، في شراسة تشبه السُّعْر، بجَنْزَلة (إحلال اللغة الإنجليزية محلّ العربيّة) التّعليم العلميّ، في البلدان العربيّة المشرقيّة، بحيث لا يُترك للعربيّة إلاّ الشّعر، والمقابر، واللاّشيء!... وكلّ ما عدا ذلك من مظاهر الحياة العصريّة يُمنح لهذه الضَّرّة التي جاءت من أقصى المدينة تسعى؛ فإذا هي حيّة تسعى! فهل من عصا لأبناء محمّدٍ تَلَقَّفُها؟ وقد لاحظنا أنّ هناك حُكّاماً عرباً، سامحهم اللّه وعفا عنهم، لا شيءَ أحبّ إلى قلوبهم، ولا أحلى في نفوسهم، من نبْذ هذه العربيّة على سَواء، ودسّ الرّطانة الإنجليزيّة (ببلاد المشرق، والفرنسيّة ببلاد المغرب، حتّى لا يكونَ أحدٌ أفضل من أحد!) المسمومة بالسياسة والغطرسة: للأطفال العرب في بلادهم كيما يشُبُّوا مزدوجِي الشّخصيات فإذا لا هم إنجليز خُلّصٌ، ولا هم عربٌ أقحاحٌ، ولا هم، أيضاً، فرنسيس، شِحَاح! سيكون أمرهم، ربما، مثل الغراب الذي لم تعجبه مشيته؛ فهو ليس إلاّ كالعربيّ الذي لم تعجبه لغته- فجاء يقلّد الحمامة لعله أن يصبح ظريف المشية، أنيق الهيئة، مثلها. وقد يشبه الغرابَ العربيُّ الذي لم تُعجبه لغته، لعلّه باستعماله الإنجليزيّة أو الفرنسيّة أن تنزِل عليه العناية من السماء، فيُمسيَ متطوّرا مثل الإنجليز والأمريكان في لحظة واحدة بفضل معجزة هذه اللّغة التي ستُمْطر عليه ذهباً وفضّةً من باطن الأرض، بعد أن شحّت السّماء، بالماء والْمُزْنِ! ولكن، وا أسفاه! الغراب لم يتعلّم مشية الحمامة، ونسِيَ مِشيته أيضا، فأمسى في همّ وشقاء، كالعربيّ الذي ربما لن يستطيع تعلّم الإنجليزية كأهلها، ولا الفرنسيّة كالنّاطقين بها، وسينسَى عربيّته فيُمسي من

الخاسرين... سيتلجلج لسانه، ويضطرب جَنانه، وتتمزّع شخصيّته... وهل حالُ من فَقَد هويّتَه إلاّ تلك الحال؟ كلّ ذلك يحدث ومجامعُ اللّغة العربيّة تَغِطّ في سُبات عميق...

وأمام هذا الوضع المحزن، كيف يمكن لمنتظر أن ينتظر أن يقع الاِتفاق بين العرب المشارقة والمغاربة من حول مصطلحات اللسانيات والسِّيمَائيّات والنّقد الجديد، بعد أن اختلف قادتهم حول السّياسة فأمسَوا غير قادرين على فعْل شيء!؟

2 ـ ويضاف إلى غياب المؤسسات العلميّة التي تُعْنَى بمثل هذا الموضوع، غيابُ المؤسسات الثقافيّة المتخصّصة مثل المجلاّت التي على الرّغم من وجود بعضها؛ فإنّ قلّة عَددها، وضِيق المساحات المهيّأة فيها لحجم المقالة المنشورة (ونستثني من ذلك بعض المجلاّت الرصينة التي أصبحتْ عزيزة على كلّ حال، كما أصبحت تباعد بين مواعد صدورها، وتُمنى بمحدوديّة توزيعها في الأقطار العربية، ثمّ محدوديّة عدد قرّائها نتيجة لكلّ ذلك)؛ قد يجعل منها مجرّد بصيص شاحب يضطرب في فَلك سحيق الأرجاء. ثم إنّ غياب الاتصال، أو قلّته، فيما بين علماء اللّسان والنُّقّاد العرب أنفسِهم، وضَعْف التّنسيق العلميّ فيما بينهم، يزيد هذا الأمر سوءاً؛ بحيث نُلفي كُلاًّ منهم يضطرب في مُضْطَرَبِه، ويهيم في واديه، ويتيه في نادِيه؛ فتتطاير الجهود شَعَاعاً، وتتبدّد الأنشطة شظايا، وتخيب، لدى نهاية الأمر، المساعي الطيّبة حيث لا تكون الثمرات المجنيّةُ إلاّ شحيحة مُزْجَاةً.

3 ـ ثم إنّ ضَعْف التّبادل الثقافي بين البلدان العربيّة، مشرقيِّها ومغربيّها جملة، ثم ما بين المشارقة والمشارقة، ثم فيما بين المغاربة والمغاربة، تفصيلاً؛ كلٌّ أولئك يوصِد الأبوابَ في وجه الآخر، ثمّ لا يلبث، أثناء ذلك، أن يُنحِيَ باللّوائم على سَوائِه، لتبرير فعله. واللّـه وحدَه يعلم ما وراء ذلك من تآمر على الحضارة العربيّة، والاجتهاد في طمْس ما قد يبدو من بعضها من إشعاع فكريّ، هنا وهناك.

وإنّك لَترى القائمين على الثقافة في الأقطار العربيّة ينادُون بالويل والثبور، وعظائم الأمور؛ حين يطالبهم المثقّفون والعلماءُ باستيراد الكتب الرّصينة والمجلاّت المتخصّصة؛ وذلك أنهم لو جاءوا ذلك لَمَا أمِنُوا أن تَخْرَبَ خزينة الدّولة، ويَنْفَدَ مالُها؛ ولكان وقع على

حساب أقوات الجائعين من الشّعب الذي هم محتاجون إلى الطّعام، أكثر ممّا هم محتاجون إلى القراءة. وما ذا عسى أن يصنع الجائعون بالقراءة، إن كانوا قارئين...! وما ذا كان يحدث لو استورد القائمون على الثقافة والعلم كتباً ومجلاّت؟ ربما كان أفضى ذلك إلى كارثة اقتصاديّة لا تُحمَد عُقباها، و"قد أفلح من زكّاها، وقد خاب من دسّاها»!...

ولَمّا كان اللّـه أصاب كثيرا من العرب بالفقر المدقع، كما قيّض لكثير منهم الثراء المشبع، على طرَفيْ نقيض؛ فإنّ كلّ نظام عربيّ تراه الآن يتلذّذ بتوقيع لحن الأزمة الاِقتصاديّة، وانّ إمكانات البلد لا تسمح بشراء الكتب بالعملة الأجنبيّة، ليس إلاّ... وزاد من هذا الأمر استفحالاً أنّ المكتبات التّجاريّة، في بعض البلدان العربيّة، ومنها الجزائر، تنقصها الاحترافيّة في تسويق الكتاب وتوزيعه بين القرّاء...

ولو وقع توزيع كلّ المنشورات العربيّة الرّصينة المضمون، والجديدة المنزع، والمجلاّت والدّوريّات من بينها، إذاً لكان الاتصال ازداد بين المثقّفين واللّغويين والنّقّاد بعامّة، ولَسمِع بعضهم من بعض، ولقرأ بعضهم لبعض؛ وإذاً لكان تولّد عن ذلك، حتما، حركة ثقافيّة وعلميّة رفيعة الشّأن، متجذّرة الأَوَاخِيِّ، متوهّجة الإشعاع، مشبوحة الذّراع.

4. ويعمّق من هوّة الاختلاف في استعمال المصطلح اللّسانيّاتي والسّيمَائيّ والنقديّ لدى المشتغلين العرب المعاصرين في هذه الحقول المعرفيّة ما يوجَد من اختلاف في أصل الاستعمال لهذه المصطلحات لدى النّقّاد الغربيّين أنفسِهم (بين اللّغتين الفرنسيّة والإنجليزيّة خصوصاً): كالاختلاف في تحديد مفهوم (Enonciation) ومُسارعة كثير من علماء اللّغة العرب إلى استعمال هذا المفهوم في اللّسانيّات استعمالاً متسرّعاً متساهلاً، غامضاً فطيراً تحت مصطلح «التلفّظ» في حال اللّزوم، والحال أنّه في اللّغة الأجنبيّة واردٌ في حال التّعدّي. وقد ورد ما هو قريبٌ من هذا المعنى في كتابات حازم القرطاجنّي متعدّياً، فهو يستعمله تحت مصطلح: «التّلفيظ» (لا التّلفّظ)...

وأمام هذه الغابة من إشكاليّات الْمَفْهَمَة في اللّغات الغربيّة نفسِها التي يأخذ منها النّقد العربيّ المعاصر مصطلحاتِه يزداد الاختلاف والغموض في الاستعمال حتى نوشك أن نخشى أن لا يُمسيَ أحدٌ منّا يفهم الآخر بدقّة ووضوح...

ونحسب أن هذه الأسباب الأربعة التي ذكرنا، وما لم نذكر قد يكون أكثر، بالإضافة إلى النّماذج القليلة التي ذكرناها أمثلةً لهذا الاختلاف كافيةٌ لأنْ تحمِلنا على أن نظلّ نختلف أكثر ممّا نتّفق، فنتكلّم كثيرا، ونُفيد من كلامنا قليلا: نتهاتر ولا نتحاور، ونتصارع فلا ينتفع بعضنا من بعض.

وفيما يلي تناوُلٌ لاضطراب المصطلح العربيّ أمام تداخل المفاهيم في العلوم الإنسانيّة المعاصرة.

أوّلاً. اضطراب المصطلح في استعمال السّمَة والسّيمَائيّة

قبل الحديث عن الجانب المعرفي في هذا الفصل وهو النّصّ وعلاقته بالسّيمَائيّة، نودّ التّعرّض لجانب لا يقلّ أهمّيّةً عن ذلك وهو المنحى الاصطلاحيّ. إذ في غياب تحديد المفاهيم لا يمكن التّفاهم بين طرفين أو عدّة أطراف. ذلك بأنّا لاحظنا وجود خلْطٍ مذهل يتعامل به الناس مع مثل هذه المصطلحات، وتساهُل بعضهم في هذا التعامل إلى أن يسفّ، في بعض الأطوار، من مستوى الاستعمال العلميّ إلى مستوى الاستعمال الثّقافي البسيط، إنْ لا نقل «الشعبيّ». أرأيت أنّ النّاس يستعملون عدّة مصطلحات لمفهوم واحدٍ، حول هذه المسألة، أو مصطلحات لغير ما وُضعت له في أصل الْمُواضعة العلميّة؛ وذلك كما يقع الخلط في الاستعمال إلى حدّ الاضطراب: بين السِّيمِيَائِيّة، والسِّيمِيَائِيَّات، والسِّيمْيُولُوجِيا،[1] والسِّميوتيكا، والسميُوتيقا، والسِّيمَائيّة، وهو مصطلحُنا... ولذلك حاولنا أن نبدّد شيئاً من هذا الغموض، ونقوّم شيئاً من اعوجاج هذا الاضطراب في جزء من هذا الفصل آملين أن نخفّف من غلواء الاختلاف دون القضاء عليه نهائيّاً، إذ ذاك أمرٌ صعب الْمَنال، شديدُ الْمِحال؛ وذلك بإعادة هذه المصطلحات إلى أصولها الغربيّة والعربيّة الأولى. فمن شاء قبِلها وتبنّاها، ومن لم يشأ فكلّ امرئ ميسّر لِما خُلق له.

1 ـ كذلك يكتبونها، وذلك بالجمع بين ساكنين في اللغة العربيّة التي تأبى ذلك. ولو فَصُحوا لكانوا كتبوا هذا اللّفظ الأجنبيّ على سبيل التعريب: «السِّمْيُولُوجيا».

إنّ المصطلح اللسانيّاتي والسّيمَائيّ بخاصّة، لا يزال يتبوّأ في حقل الدراسات الحداثيّة المنزلةَ الأولى من الاهتمام، وما ذلك إلاّ لحداثة المعاني واستِجْدَادِها كالسيل الجارف كلّ حين. وإذا كان المصطلح، بكلّ إشكاليّاته المعرفيّة، وتعقيداته المفهوميّة، في المشروع النّقديّ العالميّ، اغتدى هاجساً لدى المشتغلين في هذا الحقل بحيث ينشأ عبر اللّغات الأوربيّة فيحتدم أُوَارُ الْخُلْف بينهم احتداماً؛ فإنّ الشّأن فيه يزداد استفحالاً إذا ما انصرف إلى الثقافة النقديّة العربيّة الحداثيّة خصوصاً، إذْ أضحى من الحتميّ نقْلُ العدد الجمّ من هذه المفاهيم السِّيمَائيّة واللِّسَانِيّاتيّة الْمُسْتجدّة، المعقّدة غالباً، من تلك اللُّغَى الأوربيّة إلى العربيّة، إلى هذي العربيّة التي ترى كلَّ واحدٍ من باحثيها يُعْنِتُ نفسه بالاشتغال وحدَه، والبحث وحدَه، والاجتهاد وحدَه، مشرقاً ومغرباً؛ فتكثُر الجهود ولكنّها تُهْدَر، وتُبذل الطّاقاتُ ولكنّها تُجْهَض. وقلّ، أثناء ذلك، أن تُجْنَى ثمار الفائدة. وفيما يلي محاولة لإلقاء شيء من الضياء على هذه المسائل الْمَريجة في معظمها.

1 ـ مفهوم السّمة

إنّ كلّ الأمم، منذ العهود الموغلة في القدم، عرفت مفهوم السّمة، وتعاملت معه، في طائفة من المظاهر التي ربما أهمُّها الإشارةُ، واصطناعُ اللّون، وإقامةُ الطّقوس المتمحّضة لممارسة الشعائر الدّينيّة، والتعبير عن مناسبات الأفراح، وإبداء التألّم والتوجّع لدى حدوث الأتراح. ولاسيّما الإغريق والعرب في ثقافتيهما الكبيرتين... وإنّ الإشارة، كما يذهب إلى ذلك أبو عثمان الجاحظ منذ زهاء اثني عشر قرناً، تكون «باليد، وبالرّأس، وبالعين، والحاجب، والمنكب، إذا تباعد الشخصان، وبالثوب، وبالسيف».[2]

ولا تذهب، جان مارتيني (Jeanne Martinet) في بحوثها السّيمائيّة، في الثلث الأخير من القرن العشرين، إلاّ إلى بعض ذلك.[3]

2 ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، 1. 92.

3 - Cf. J. Martinet, Clef pour la sémiologie, p.54 et suiv.

هذا، وإنّ أصل السِّمَة، في اللّغة العربيّة، هو الوَسْم، وهو إحداث تأثير، أو عَلْمٍ، بِكَيٍّ أو وشْمٍ أو نحوِه. فالهاء في هذا الحرف جاءت عوضاً من الواو، كما يقول علماء العربيّة.[4] وكلّ ما يجري من هذا التركيب يدلّ على إحداث علامةٍ تغتدي صفةً بادية للعِيان -عارضة أو دائمة- في سَوائها.

في حين ينصرف تركيب (ع لَ م) إلى معنىً قريبٍ من تركيب (و س م) دون أن يكونَه في وضع الاِستعمال العربيّ. ولعلّه أن يكون آتِياً من «العلامة والعَلَم» بمعنى الجبل[5]. ومنه أخذوا علامة الثوب لدى القَصّار حتّى تستميزَ الأثوابُ بعضُها من بعضٍ.

ولَمّا كان هذان الاستعمالانِ الاِثنان (وسم- علَم) متقاربيْنِ في أصل الوضع العربيّ، وعبْر المعاجم، على الرّغم من أنّ (علم) يبدو معنىً قائماً في نفسه (مثل العلامة والعلَم، بمعنى الجبل)، فقد وقع الاختلاف بين المتعاملين من النقّاد والسيمائيّين العرب بين مَيْلِ بعضِهم إلى استعمال مصطلح «العلامة»، وجنوح بعضهم الآخَرِ إلى اصطناع مصطلح السّمة. في حين أنّ (وسم) يبدو ناشئاً عن حركة واقعةٍ من سَوائِه كَمَن يَسِمُ فرَسه بكيّة حتّى تتّسمَ، أي تكون لها سِمَة. وعلى أنّ هذا أيضاً ليس، في الحقيقة، مسلّماً على وجه الإطلاق. وقد لا تزيد هذه السيرةُ هذه المسألة إلاّ تعقيداً وإشكالاً؛ وذلك حيث إنّ إعْلام الثوبِ من القَصّار ليس إلاّ بمثابة وَسْم الْحَمّارِ لدابّته في الصورة الأخراةِ. إنّ السِّيمَائيّين العرب حين جاءوا إلى إدراج هذا المعنى، ضمن ما يُفيد معادلاً للمصطلح الأجنبيّ :(Signe, sign) حارُوا ومارُوا، والْتبس الأمر عليهم فإذا منهم من يصطنع «السِّمة» وهم قليل، وإذا منهم من يصطنع «العلامة» وهم خلْق كثير، بل إنّا ألفينا منهم من يستعمل «الدّليل»[6] مقابلاً للمصطلح الأجنبيّ. والاستعمال الأخير مُزعج إلى حدّ الإيذاء، ومُحيِّر إلى درجة السُّمود.

ونحن نُؤْثر اصطناع مصطلح «السّمة» لطائفة من الأسباب من أهمّها:

4- ينظر الجوهري، الصّحاح: تاج اللّغة وصِحاح العربيّة، وَسَم.

5- م.س.

6- ينظر د. حنون مبارك، دروس في السيميائيات، دار توبقال، الدار البيضاء، 1987.

أ. إنّ «العلامة» استُعملت في الفكر النحويّ العربيّ بمعنَى لاحقةٍ تلحق فعلاً من الأفعال، أو اسماً من الأسماء، فيستحيل من حال إلى حال أخراةٍ. ولعلّ اصطناع ذلك المصطلح النحويّ في المفاهيم السّيمائيّة قد يزيد هذا الأمر اضطراباً والتباساً.

ب. يبدو لنا، ولو من الحاسّة الذوقيّة فقط، من خلال تلقّي المعنى المتولّد عن اصطناع «السمة» أنّه أدنى ما يكون إلى ما يُطلِق عليه السّيمَائيّون الغربيّون مصطلح «Signe»، من مصطلح «العلاَمة» الذي ربما انصرف إلى المعنى المادّيّ فتمحّض له.

ج. إنّ إطلاق «السمة» على مفهوم «Signe»، عوضاً عن مصطلح «العلاَمة» -ولنكرّرْ- سيحلّ لنا مشكلة أخراةً من مشكلات المصطلح، وهي أنّنا، حينئذ، نمحّض مصطلح «العلاَمة» لمفهومٍ آخرَ قريبٍ منه وهو «La marque» وقد صادفتْنا هذه المشكلة لدى ترجمة بحث عن الأصول السّيمَائيّة في فكر شارل بيرس[7] حيث إنّا اصطدمنا بمصطلحين اثنين مختلفين، في الحقيقة، في الاستعمال الغرْبيّ وهما: «Le signe»، و'La marque في موقف واحدٍ.

وعلى أنّ السّمة أنواعٌ مختلفة، خصوصاً من الوجهة الفلسفيّة، لدى بيرس. وقد جاء التّفصيل في أمرها ضمن المقالة التي كنّا ترجمناها عن فكره؛ إذ ترتبط السمة لديه بشبكة من المفاهيم والعلاقاتِ الثُّلاثيّةِ الأطرافِ يُقِيمُها على عشرةِ مبادئَ؛ كلّ مبدأ يتأسّس على ثلاثة فروع كالعَلاقة التي تنهض بين الأساس والسمة، إذ تتولّد عنها:

أ. السمة الوصفيّة (Qualisine)؛

ب. السمة الفرديّة (Sinsigne)؛

ج. السمة العُرْفيّة [8].(Légisigne)

ولقد شكّكت جوليا كرستيفا (Julia Kristeva) في علاقة السمة بالسيمائيّة بإنشائها

7 - نشرت هذه الدراسة مترجَمة من الفرنسيّة إلى العربيّة، بقلمنا، في مجلّة "علامات"، جدة، ع.4, 1992.

8 - م.س.

مفهوم «نِتَاجيّة» (أو إنتاجيّة) .(Productivité) فلم يزل الجَدلُ دائراً، كما يلاحظ ذلك ديكرو وطودوروف، حول مفهوم السمة وحول علاقتها بالتقليد المثاليّ لمركزيّة العقل (La tradition idéaliste-logocentrique).(...)[9]، وأنّ جوليا كرستيفا هي التي أثارت، في الحقيقة، الضجّة من حول إعادة تنظيم حقل العلاقة بين السّمة ومُنْتَمَاها التّقليديّ: السّيمائيّة، وذلك ببلورتها مفهومَ النّتاجيّة في النّص.[10]

والحقّ أنّ طودوروف وديكرو لم يَزيدا شيئاً كثيراً على تلخيص بعض كتابات جوليا كرستيفا.

أمّا السمة من حيث صِلتها المباشرة باللّغة ودلالتها، والطقوس التي تُحيل عليها، فهي تعني، مثلُها مثل الرمز، والقرينة، والإشارة: أنّ عنصر (ا) الذي يكون ذا طبائع مختلفة، يحلّ محلّ عنصر (ب). وبذلك يمكن أن يكون مفهوم السمة معادلاً، من كثير من الوجوه، للقرينة .(Indice) والقرينة، أو السمة، ظاهرة، غالباً ما تكون، طبيعيّةً، قابلةً للإدراك بصورة مباشرة. وهي التي تُحيطنا خُبْراً بأنّ شيئاً ما، بشأن موضوع ظاهرة أخراة، غير قابلةٍ للإدراك بصورة مباشرة كاللّون الدّاكن الذي يسِمُ وجه السّماء، فهو ليس إلاّ سمةً، أو قرينةً، لعاصفة وشيكة الحدوث. وكارتفاع درجة حرارة الجسم، فهو ليس أيضاً، إلاّ سمةً، أو قرينةً، لعلّةٍ ما في حالة انْدِسَاس.[11] فعنصر (ا)، هنا، هو السحاب الدّاكن الذي يواري صفحة السماء، وهو حاضر. أمّا عنصر (ب) فهو الغيث الوشيك الهَطَلاَن، وهو عنصر غائب. فالسحاب الداكن، هنا، سمة. على حين أنّ السّمةَ في تصوّر طودوروف هو «وحْدةٌ (...) تُعلن نقصاً في ذاتها».[12]ولعلّ الأمر الأدْعَى إلى الجدل في نظريّة السّمة ما ينصرف إلى طبيعة المدلول؛ فقد عُرِّف، هنا في تحديد ديكرو وطودوروف، على أنّه ناقص في ذاته، غائبٌ في الشيء المدرَك، وهو الذي يستحيل، بحكم ذلك، إلى دالّ. وإذن، فالسّمة تعني، من وجهة نظر دو صوسير،

9 - Ducrot et Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, p.449, Seuil, Paris, 1972.
10 - Ibid.
11 - Cf. Jean Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique, Signe. 1
12 - Ducrot et Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, p.132-133. 1

القبولَ بمبدأ وجود اختلاف جوهريّ بين الدالّ والمدلول، والحسّاس وغير الحسّاس، والحضور والغياب. كما تُعرَّف السمة انطلاقاً من تصوّرات دو صوسير بأنّها ظاهرة ذات وجهين: أحدهما يباعد ويناقض، وأحدهما الآخر يقارب ويربط الدّالّ على مستويات الصوت، والكتابة، والإشارة، وهلمّ جرّاً بالمدلول المترابط.[13]

ويذهب دو صوسير إلى عدِّ اللّغة أساساً للسِّمة؛ وأنّ هذه السمة ليست إلاّ ثمرةً لاجتماع دالّ ومدلول، باعتبارِهما سُخْرِيّاً لمكوّنات الشكل اللّساني.[14] وقد حاول اللّسانِيّاتيّون إثباتَ هويّة السمة بإعادتها إلى أدنى حالتها، أي إلى اللّفظ، أو «المرفيم» (Le morphème)[15]، (أو «الْمُونِيم» - (Le monème)[16] باصطلاح أ. مارتيني [Martinet

13 - Cf. Paul Ricur, Signe et sens, In Encyclop?dia universalis, T. XVI, p.882. 1

14 - d. 1

ذلك، وإنّ عامّة الجامعيّين العرب حين يحيلون على هذا المعنى يصطنعون النسبة إلى «اللّسان» لا إلى اللّسانيّات. ونحن نعلم أنّ هناك فرْقاً شاسعاً بين مفهوم اللّسان الذي هو نظام للسّمات اللّفظيّة الخاصّة بمجموعة من الأفراد الذين يصطنعونه للتعبير، والتواصل فيما بينهم (Cf. Larousse encyclopédique, (Langue). وقد فاتحت أستاذي الدكتور الحاج صالح عبد الرحمن ونحن بجامعة وهران يوم الأربعاء عاشر مارس 2004 في الساعة الثانية عشرة تقريباً، وأنّني أنسب إلى اللّسانيّات، حتّى أميّز النسبة إلى اللّسان؛ كما أنسب إلى الرياضيّات فأقول: «رياضياتي»، حتّى أميز النسبة إلى الرّياضة؛ وكما تقع النسبة إلى النحو فيقال«نحويّ»؛ فخالفني الأستاذ فيما ذهبتُ إليه مقرّراً أنّ اللّسانيّات، لديه، تعني فقه اللّغة المتمحّض لدراسة لغة واحدة بعينها. ولذلك يقال في النسبة «لساني»؛ إذ كان علم اللّغة العامّ يطلق عليه في رأي الأستاذ الحاج صالح «لسانيات عامّة» (وكأنّه كان في ذهنه كتاب دو صوسير، أو كتاب جون ليونس)... ونحن قد عدنا، تارة أخرى، إلى الكتب المتخصّصة، وإلى الموسوعات الفرنسيّة الصادرة منذ شهور، فألفيناها تُجمع على أنّ اللّسانيّات (Linguistique) هي علم اللّغات، لا علم لغة واحدة. بالإضافة إلى الإشكال الذي تطرحه النّسبة إلى «اللّسانيّات العامّة»... ولعلّ التوهّم يقع بين «لغة» (Langage)، و«لسان» (Langue)؛ إذ تذهب بعض التعريفات إلى أنّ اللّسانيات هي علم غايته دراسة اللّغة (Langage) والألسن (Langues) (Larousse, Paris, 2003). في حين عرّف معجم هاشيت «اللسانيات» بأنّها الدراسة العلميّة والتاريخيّة المقارنة للألسنة!!. فهل نحن إذن مُليمونَ إذا نسبنا، أو «أضفنا» على حدّ اصطلاح سيبويه في الكتاب، مباشرة إلى اللّسانيّات، فنقول «لسانياتي» على أساس أنّ هذا اللسانياتي يدرس الألسنة دراسة علميّة وتاريخيّة مقارنة؟ إنّا نصرّ على أنّ النسبة الصحيحة الفصيحة للّسانيات هي اللّسانيّاتي، وأنّ النسبة إلى اللّسان، تختصّ بالعالِم الذي يتحدّث عن لغة واحدة لا يعْدوها. وأمّا مفهوم اللّسانيّات العامّة فلم يعدمستعملاً كثيراً بين اللّسانيّاتيين حتّى إنّ جان ديبوا وأصحابه أنفسهم -وهم المتخصّصون في هذا العلم- حين ألّفوا معجم اللّسانيّان لم يوردوا وصف «العامّة» للّسانيّات لا في العنوان، ولا في المتن؛ فذلك إذن، ذلك. وقد تحتاج هذه المسألة إلى نقاش أعمق وأوسع لكي تتبلور.

15 - يختلف معنى «المرفيم» من الحقل النحويّ إلى الحقل النحويّ التوزيعيّ، ففي الحقل النحوي يتمحّض معنى الْمُرفيم لجزء من لفظ، أو جملة، يدلّ كلٌّ منهما على وظيفة نحويّة معيّنة في الْمَلفظِ .(Enoncé) واللفظ مصطلح حازم القرطاجنّي، (ويجمعه على مَلافظ). وقد آثرناه على مصطلح «الملفوظ»، لأنّ القرطاجنّي حين اصطنعه كان يقصد به إلى هذا المعنى نفسه. ينظر حازم القرطاجنّي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص. 222، 223. تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلاميّ، ط.3 1986. في حين يعني «المرفيم» في مصطلحات الحقل النحويّ التوزيعيّ الوحدة الصغرى الدّالّة، الْمُميّزَة في الملفظِ التي يمكن تقسيمها إلى وحدات أصغر دون الْمَعاج على المستوى الصّوتيّ. (ينظر، لمزيد من التفصيل:

J. Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique, Morphème.

16 - يعني مفهوم «الْمُنيم» في لغة مارتيني: الوحدة الدّالّة في طورها الأوّل. م.س. .(Monème)

André). وقد أفضى هذا إلى اعتماد تعريف عامّ يستطيع أن يشمل اللّسان على أنّه «نظام للسّمات».[17]

أمّا يالمسليف (Louis Hjelmslev, 1899 - 1965) فقد حاول أن يضيف جديداً إلى هذه النظريّة بربْطه مفهوم السمة بمفهوم الْمُوَاسِم[18] (السِّمْيوزة) (والتي هي عبارةٌ عن عمليّة يتمّ من خلالها تبادل العلاقة بين التعبير والمضمون (حسب مصطلح يالمسليف، انطلاقاً من تفكير هيجل)[19]، أو بين الدّالّ والمدلول طبقاً لمصطلحات دو صوسير) التي تنتج السّمات. وانطلاقاً من هذا التمثّل، فإنّ كلّ فعْلٍ لغويّ يتولّد عنه وجود مُواسِم (سِمْيوزة). وإذن، فليس الْمُواسم -السِّمْيُوزة- إلاّ ثمرةً من ثمرات الفعل اللّغويّ (التفاعل الداخليّ للعلاقات اللّغويّة) في حال انتجازه.[20]

وكما يمكن الحديث عن السِّمَات الدّنيا (Signes minimaux) التي هي الألفاظ، فقد يمكن التحدّث عن السّمات الملفوظَةِ Enoncé، أو السّمات/ الخطاب (discours - Signes).[21] ومن التعريفات التي جاء بها قريماس منصَّصَةً وأهمل الإحالةَ على مصدرها عن مفهوم السمة أنّها «شيءٌ جِيءَ به ليمثّلَ شيئاً آخر».[22]

وقد يبدو هذا التعريف جامعاً مانعاً، كما كان القدماء يعبّرون، حيث إنّ الشيء الحاضر هو الذي يمثّل الغائب، ويكثُر هذا، خصوصاً، في سِيمَائيّة القرينة القائمة على العِلّيّة، أو السببيّة، حيث لا يكون الصَّدَى، في حقيقة أمره، إلاّ صورةً للصّوت الغائب. كما أنّ آثار الأقدام المرسومة على كتلة من الثلج ليستْ إلاّ صورةً للأقدام الغائبة. وقد تكون القرينة الحاضرة بصريّة (آثار أقدام على الثلج، أو الطّين، أو الرمل، أو نحو ذلك)؛ كما قد تكون

17 - Courtés et Greimas, Sémiotique, dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Signe.

18 ـ بعد الاطّلاع على ما كتب إمبرتو إيكو في كتابه "السمة" عن معنى هذا المفهوم السّيمَائيّ خُيّل إلينا أنّ المقابل العربي لمصطلح "السّمْيوزة" الأجنبيّ يمكن أن يقابله ما نطلق نحن عليه "الْمُوَاسِم". ونحن كتبنا اللّفظ الأجنبيّ "السميوزة") عوضاً عن "السيمْيوزة" التي يكتب العلماء العرب المعاصرون بها هذا الحرف حتّى لا نجمعَ بين ساكنين في العربيّة، طبقاً لمقتضيات ضوابط النحو العربيّ.

19 - Cf. Pierre Zima, La déconstruction, p.8. 1

20 - Cf. P. Ricur, op. cit. 1

21 - Cf. Courtés et Greimas, op. cit., Sémiosis. 1

22 - Id., p.350. 1

سمعيّة (الصدى الحاضر الذي يمثّل الصّوت الغائب)؛ كما قد تكون شمّيّةً (العطر المشموم في مِعراج ما، بعمارة ما).

غير أنّ ثبوت سببيّة هذه السّمات لا تجعلها منحصرة في مفهوم القرينة وحدها، بل لا تمتنع من أن تكون مُماثلاً[23] (إقونة). أرأيت أنّ الأقدام المرسومة على الثلج هي سمة حاضرة لسمة غائبة مماثلةٍ لها؛ فهي تجسّد السّمة المماثلة. إذ لا يمكن أن تكون تلك الأقدام المرسومةُ لغير القَدَمين، أو الأقدام، التي مرّ أصحابها من هناك. فتلك السمة تدلّ على أنّ أناساً هم الذين مرّوا من هنالك، لا ذئاب، أو حُمُر، أو خيل... فهي أقدام لا حوافر أو أظلاف... فالسمة الحاضرة إذن تماثل السمة الغائبة مماثَلة تامّة، ولا تُشبهها فقط؛ وتلك طبيعة المماثل.

بيد أنّ السّمة، مهما يُتوسَّعْ مفهومها وتتنوّعْ دلالتها، فإنّها تظلّ مجرّد إشاراتٍ أو ألفاظ، أو عناصر منعزلة. ومن أجل التحكّم فيها، بالضبط والتحليل، كان علم السّمات (Sciences des signes)، أو النظريّة العامّة للسّمات. وينضوي هذا الحقل نفسُهُ تحت مصطلح «السِّيمَائيّة». فما السِّيمَائيّة؟ وإنّ محاولة الإجابة عن بعض هذا السّؤال هي التي تشكّل القسم الثاني من هذا الفصل.

والحقّ أنّ كلّ ما قيل في مفهوم السمة ووظيفتها يحتاج إلى مزيد من التفصيل والتفريع. فقد تكون السمة -سواء كانت طبيعيّة أو اصطناعيّة- حاضرة فيكون وضعُها، في الحقيقة، غيرَ وضْعِ السمة الغائبة؛ فقول القائل: «ناولْني الوردة» هو غير قول الآخر: «جرت العادة أن يُهدي الأبناء لأمهاتهم الورد في عيد الأمّ». فالوردة الأولى سمة شمّيّة حاضرة وحَيّة، ولا تدلّ على معنىً غائبٍ إلاّ هذا المعنى الكامن فيها الذي يميّز ورديّتها عن أيّ معنى آخر. في حين أنّ «الورد» في العبارة الأخرى هو سمة غائبة عن الأبصار، وتحمل معنىً غائباً

23 - تعرّف الإقونة على أنّها سمة (أو علامة) حاضرة دالّة على سمة غائبة. هذا، وقد كنا منذ أكثر من عشر سنوات نطلق على هذا المفهوم السّيمائيّ ما لا يزال يطلق عليه عامّة النّقّاد العرب الْجُدُد، وهو الإقونة" المأخوذة من اللّفظ الغربيّ دون دلالة عربيّة. أمّا الآن فقد أنشأنا مقابلاً لهذا المفهوم باللّغة العربيّة انطلاقاً من دلالة مفهومه في أصل الإطلاق لدى الغربيّين، وهو "الْمُمَاثِل"؛ لأنّ السّمة المماثلة في الذهن أو في البصر تدلّ على صِنْوتها الغائبة. وقد بسطنا القول في تعليل هذا المصطلح العربيّ في مواطن أخراةٍ من كتاباتنا الأخيرة... وقد عدلنا عن التّعريف الطّويل الذي ورد في الطبعة الأولى من كتابنا هذا -ص.80- لافتقاره إلى الدقّة.

أيضاً. فالوردة الأولى مجسَّمةُ المعنى حاضرتُه، ولا نرى أنّها تحمل معنىً غائباً كما يزعم بعض السّيمَائيّين. أمّا سمة الورد في المثال الثاني فهي مطلقة الدّلالة على الورد، أو كأنّها دلالة محايدة بحيث لا تعني إلاّ معنىً متوهّماً في الذهن وهو غير متأكّد الحضور والوقوع.

ثمّ من قال إنّ كلّ سمة هي عبارة عن «شيءٍ جِيءَ به ليمثّلَ شيئاً آخرَ»؛ وأنّها «وحْدةٌ (...) تُعلن نقصاً في ذاتها» كما زعموا؟ فمن قال إنّ سمة «الوردة» هي سمة جيءَ بها لتمثّل شيئاً آخر؟ فما هذا الشيء الآخر؟ حتّى العبق المفترَضُ وجودُه في سمة الوردة (أي أنّ الوردة سمة حاضرة تحيل على سمة غائبة هي عبَقُها) ليس مسلّماً، إذ ما أكثر الورودَ التي ليس لها عبق. وإذن فأين هذا المعنى الغائب الذي تحيل عليه سمة الوردة؟... ثمّ من قال: إنّ سمة «الدّخان» المتصاعد في السماء هي سمة جيء بها لتمثّل شيئاً آخرَ غيرَ هذا الدّخان في حدّ ذاته، وأنّها تُعلن نقصاً في نفسها؟ فالدّخان سمة كاملة الدّخَانيّة، لا يوجَد فيها غيرُ الدّخان؛ فهي سمة سوداءُ خانقةٌ في غياب الفضاء المفتوح. كما أنّ الوردة سمة شمّيّة لا يوجَد لها من معنى غير العبق الذي يصدر عنها، وليس العبق غائباً عنها، بل هو صفة لازمة فيها، مصاحبة لوجودها...

لعلّ المعضلة كلّها في نظريّات الحداثيين الغربيّين أنّهم انساقوا وراء الإصرار على حرمان اللّفظ من تقمّص معناه، (بحكم الفلسفة الحداثيّة العابثة في كثير من تأسيساتها) فجعلوا السمة مجرّد واسطة، أي علامة شكليّة جوفاء لا تعني شيئاً في نفسها، بل إنّها تعوَّم في نظام اللّغة فلا يكون لها شيء إلاّ فيه؛ وهذا أمر يفتقر إلى تدقيق، وإلاّ فما ذا يفعل اللّه بسمة «المطر»، مثلاً، في قول القائل: «المطر يهطل»؛ فهل هذا المطر السائل المبلِّل الهاطِل الهاتِن هو سمة دالّة على معنىً غائب، حقّاً؟ وأين يكمن معنى الغياب هنا؟ إلاّ أن يكون السحاب الدّاكن الذي هو، فعلاً، سمة بصريّة حاضرة دالّة على سمة غائبة، هي وشْكان سقوط المطر... وإذن، فليست السمات سواءً؛ فلا سواءٌ سمة السحاب الداكن، وسمةُ الغيث الهاتن... فالسحاب الدّاكن هو سمة بصريّة حاضرة تحيل على معنى غائب هو وشكان تَهْتان الغيث، مثلها مثل سمة ارتفاع الحرارة في جسم ما، فإنّ تلك الحرارة الزائدة هي سمة تحيل على معنىً غائب هو الإصابة بالْحُمّى... غير أنّ سماتٍ كثيرة لا تستمتع

بهذه الخصائص الدلاليّة فتُستثْنَى... إنّ جان ديبوا وأصحابه يعرّفون السمة على أنّها عبارة عن قيمة (ا) تحلّ محلّ قيمة (ب)،[24] فهل الغيثُ هنا هو قيمة (ا) أو قيمة (ب)؟ وإن كان يمثّل قيمة (ا) فأين معنى (ب)؟ وإن كان يمثّل قيمة (ب) فأين معنى (ا)؟ إنّه ليخيّل إلينا أنّ من السمات المحسوسة ما لا يحمل معانيَ غائبة، بل يمثّل معانيَها في نفسها؛ وإنّما قد يصدق ذلك على طائفة من السّمات الأخرى، المحسوسة والمجرّدة، أو السّمات الغائبة الدّالّة على معانٍ لا تدرَك بالعين، ولكن بالذهن، كالمعاني التي تجسّدها السمات التاريخيّة التي لا يمكن مشاهدتها...

إنّ التّعريفات التي جيء بها لتحديد مفهوم السمة لا تزال مفتقرة، إذن، في رأينا، إلى نقاش وتكملة وتفصيل...

2 ـ مفهوم السيمَائيّة

إنّ «السّيمَائيّة» آتيةٌ من تركيب (س و م) الذي يعني، فيما يعني، «العَلاَمة» التي يُعْلَمُ بها شيءٌ ما، أو حيوانٌ ما. ومن هذه المادّة جاء لفظ «السّيمَا»، بالقصر؛ و«السّيمَاء»، بالمدّ؛ و«السّمِيَاء» (بإضافة ياء قبل الألف، وبعد الميم).[25] ومن اللّفظ الأخير أخذ منظّرو السّيمائيّات العرب مصطلحهم المعروف تحت عبارة: «السّيمِيَائيّة» (بإضافة ياء النزعة أو المذهبيّة، أو الياء الصناعيّة باصطلاح النحاة العرب). وإذن، فمن الناحية اللّغويّة الخالصة يمكن أن نقول: «السّيمَوِيَّة»، كما يمكن أن نقول: «السّيمَائِيَّة»، بالإضافة إلى الإطلاق الثالث -الطّويل- المعروف.

ذلك، وقد لاحظنا فيما نسمع من الجامعيّين، أساتذةً وطلاّباً، أنّهم ينطقون «السّيمِيَائيّة»: «السّيمْيَائيّة» اختصاراً فيلحنون بالجمع بين ساكنين؛ وذلك لطول اللفظ الذي يجعل الحنجرة تكابد في تقطيعه حتّى يتقطّع نفسُها فيقع المحظور! من أجل ذلك نستعمل

24 - Cf. Jean Dubois et autres, op. cit., Signe.

25 ـ ينظر الجوهري، م.م.س.، سوم؛ وابن منظور، لسان العرب، سوم. وقد زعم ابن منظور أنّه لم يأت من هذا المثال إلاّ ثلاثة أحرف، هي السّيمياء، والجِرْبِياء، والكيمياء.

نحن صيغة «السّيمَائيّة» الآتية من «السّيمَاء»، وهي مرادف للفظ «السّيميَاء». ولا ندري لِمَ آثر السّيمَائيّون العرب أطول الألفاظ الثلاثة ليُلحقوا به ياء المذهبيّة فيُصبح نطقه لا يطاق!؟ ولقد كنّا فصّلنا القول في هذه المسألة منذ قريبٍ من عشر سنوات، فلا مدعاة لإعادة ما قلناه هناك، هنا.[26]

والحقّ أنّ مصطلح السّيمَائيّة الذي كثيراً ما يقابله، دون تدقيق، المصطلحان الغربيّان: Sémiologie, Semiology"" و"Sémiotique, Semiotics" (وهما آتيان من الأصل الإغريقيّ المركّب "Semeiotike") هو من بلورة شارل بيرس (Charles Sanders Peirce, 1839-1914)؛ فهو الذي كان يَعُدّها بمثابة العلم الكلّيّ للسّمات الذي يشمل كلّ السّمات، هي غير السّمات اللّسانيّة (نسبةً، هنا، إلى اللّسان)؛ إذْ لم تَغْتَدِ اللّغةُ إلاّ مجرّد نقطةٍ في فضاء رحيب تتحكّم فيه أمبراطوريّة السّمات[27] البصريّة، والشّمّيّة، والذوقيّة، والسمعيّة (الألوان- العلامات- الإشارات العامّة- إشارات المرور- الشعارات- الرايات- أوسمة الجنود والضباط في الجيوش- ألبسة الرياضيّين بأشكال وألوان معيّنة- وما لانهاية له من السيمَائيّات التي أمست جزءاً مركزيّاً من ثقافة هذا العصر...).

إنّ السّيمَائيّة لم تتخذ شكل المشروع العلمي، في حقيقة الأمر، إلاّ بفضل جهود بيرس، ودو صوسير (Ferdinand de Saussure, 1857-1913). لكنْ ممّا يلاحظ أنْ لا لدى هذا، ولا لدى ذاك، كان الأدب مما يدور بخلدهما على أنّه سيكون، يوماً، موضوعاً حقيقيّاً، أو حتّى ممكناً، للحقل السيمائيّ.[28] وتتطلّع السّيمَائيّة اليوم إلى تبنّي نفسِها بما هي علْمٌ للمعاني. إنها منهجيّة العلوم التي تعالج الأنساق الدّالّة، أي العلوم الإنسانيّة حيث إنّها تعُدّ الممارسات الاجتماعيّة/التاريخيّة التي تشكّل موضوع هذه العلوم (الأسطورة- الدين- الأدب إلخ.) على أنّها أنساقٌ للسّمات.[29]

---

26 ـ هذا، وقد كتبنا مقالة حول تفاريق استخدام هذا المصطلح، ينظر كتابنا، قراءة النّصّ، نشر كتاب الرياض، دار اليمامة، 1997، ص.333-345.

27 - Cf. P. Ricur, op. cit.

28 - Cf. Michel Arrivé, La sémiotique littéraire, in Sémiotique, l'Ecole de Paris, p.133. 1

29 - Cf. J. Kristeva, Sémiologie, in Encyclop?dia universalis, t.XVI, p.703.

وعلى أننا لا نرى ضرورةً للاتّفاق مع جوليا كرستيفا، ولا أن نمضيَ أيضاً صامتين دون مناقشة رأيها؛ وذلك حين تقرن الأسطورة بالدّين، والدين بالأسطورة. فمثل هذا الموقف الإلحاديّ لا نرى له ما يبرّر قبوله. وإذا كان في ذهن كرستيفا دِينٌ بعينه، فإنّه لا ينبغي أن يُفهم منه أنّ ذلك ممكن أن يسريَ على الإسلام الذي يرفض أسْطَرة الأشياء؛ وهو الذي طالما دعا إلى العقل، وحثّ على التفكير، وأغرى بالتّأمّل والتدبّر.

إنّ الاعتقاد المطلق بضرورة قَرْن الدِّين بالأسطورة لدى مَعاظِمِ علماءِ الاجتماع، وآخرين من المفكّرين الغربيّين، على مستويات مختلفة، لا ينبغي له أن يخادعنا، ولا أن يُلفيَ سبيلاً إلى تعقيدنا باسم العلمانيّة؛ فالعلوم الإنسانيّة التي تُحيل المنظّرة الفرنسيّة عليها ليست علوماً دقيقةً تنهض على التجربة المخبريّة الصارمة، كما هو دَيْدَن العلوم الدّقيقة وطبيعتها؛ وإنّما يتمحّض الشأن، هنا، وإلى أن يثبت العكس كما يقال، لتطلّع من الباحثين في العلوم الإنسانيّة إلى تطوير هذه المناهج على أساس من الطموح العلميّ دون أن تكونَها في الحقيقة. وعلى أنّ ذكْر كرستيفا للدّين، بجانب الأسطورة، قد تكون الغاية منه هي كونَه، هو أيضاً، مما يخوض فيه علم الاجتماع... فلنظنّ، إذن من هذا المنظور، بالمرأة خيراً ولا نُشْطِطْ!...

ثانياً. إشكاليّة ازدواج المصطلح

لم يزل السِّيمَائيّون الغربيّون يلهثون وراء محاولة تحديد الفرْق بين مفهومين اثنين يبْدُوَان مختلفين من الناحية اللّفظيّة، وهما: «السِّمْيُولوجيا» (Sémiologie, Semiology) من وجهة، و«السِّمْيُوتيكا»[30] (Sémiotique, Semiotics) من وجهة أخرى؛ فهل يعني ذلك أنهما واردان بمعنىً واحدٍ، في الاستعمال الحقليّ، على الرغم من اختلاف لفظيهما؟ وإذن، فلماذا هذه الازدواجيّة في الاصطلاح؟ وإذا كان بينهما فرْقٌ، أو فرْق ما، أو فرق شاسع، أي إذا كان كلّ منهما يحدّد حقلاً معرفيّاً لا يعدوه، ولا ينبغي أن يمتدّ إليه سلطان المصطلح الآخر؛ فيجب، إذن، تحديد ذلك بشيء من الصرامة والدّقّة العلميّتين؟

30 - نقترح أن يكتب اللّفظان الأجنبيّان المعرّبان كما كتبناهما، أي بعدم إدراج الياء الساكنة بعد السين لتجنّب وقوع ساكنين متجاورين.

وقبل أن نخلص إلى عرْض آراء المنظّرين السّيمَائيّين حول هذه الإشكاليّة يجب أن نلاحظ أنّ الإطلاقَيْن الاثنين يتّفقان معاً في السابقة حيث إنّ كُلاً منهما يبتدئ بسابقة «Semio»، وهو آتٍ من اللّغة الإغريقيّة (Sêmion)، ويعني «السِّمة» (Le signe)؛ ثمّ يفترقان في أنّ أحدَهما ينتهي بلاحقة Logie, Logy الذي هو أصلاً «Logos»، ويعني الخطاب، والعلم. على حين أنّ أحدهما الآخر ينتهي بلاحقة «Tique» التي تعني النّسبة العالِمَة في جملة من المصطلحات. فهل هما، إذن، اِسمان اثنان، بناء على أصل الوضع الإغريقيّ، والمسمَّى واحدٌ؟ يبدو أنّ الإطلاق الثاني لا يعدو أن يكون نسبةً إلى الاسم الموضوع لهذا المفهوم الذي هو السِّمة؛ فهو أشبه ما يكون بالإطلاق العربيّ (السِّيمَائيّة) حيث الياءُ الصناعيّةُ، كما يصطلح النحاة العرب على تسميتها، في رأينا، لا ترقَى إلى القدرة على نقل مفهوم النزعة المذهبيّة الواردة في إطلاق الغربيّين Logie, Logy الذي يعني العلم الآتي أصلاً من الإغريقيّة «Logos» الذي يعني العلم أيضاً. فكأنّ هذه الياء الصناعيّة العربيّة أدنى إلى النسبة، أو إلى العلاقة بالعلم أو الاشتغال به أكثر من دلالتها على العلم نفسِه؛ وعلى أنّه المفهومُ المناقض لـ«الميثوس» Mythos.

وأيّاً ما يكن الشّأن، فإنّ قريماس حين سألتْه جريدة «العالَم» Le Monde الباريسيّة سنةَ أربعٍ وسبعين وتسعمائة وألفٍ عن سرّ التسميَة المزدوجة في استعمال هذا المصطلح أجاب بأنّ مثل هذا الأمر هو من صميم الخصومات العقيمة! وذكر أنّه وقع الاتّفاقُ سنةَ ثمانٍ وستين وتسعمِائةٍ وألْفٍ بين ياكبسون، وسطروس، وبَنْفُنِست Benveniste ، وبارط، وهو شخصيّاً، على اصطناع مصطلح «السِيمَائيّة» Sémiotique, Semiotics . بيد أنّ مصطلح Sémiologie، بحكم تغلغُله في الثقافة الأوربيّة لم يكن من اليسر نسيانُه، وإذن إبعادُه من الاستعمال.[31]

غير أنّ قريماس لم يلبث أن تراجع عن هذا الإجماع الذي كان وقع بينه وبين أقطاب السيمَائيّة في فرنسا خصوصاً، فنُلْفيه يجنح إلى أنّ المصطلحين الاِثنين كأنّهما يعنيان شيئين

31 - Cf. Greimas, in Le Monde, Paris, du 07 juin 1974, in Sémiotique, l'Ecole de Paris, p.128.

اثنين مختلفين حقّاً. وركْحاً على ذلك، فهو يرى، بناء على بعض توجيهات كان قدّمها يالمسليف Louis Trolle Hjelmslev, 1899-1965 بأنّ مصطلح السِّيمَائيّات Semiotics Sémiotiques, باستعماله في حال الجمع يعني البحوث المتمحّضة للحقول الخاصّة مثل الأدب، والسينما، والإشاريّة، وهلمّ جرّاً. على حين أنّ مصطلح السِّيمَائيّة Semiology Sémiologie, يتمحّض حينئذ للنظريّة العامّة لكلّ هذه السِّيمَائيّات.(32)

وقد يكون هذا هو المخرج العلمي الرصين الذي يمكن أن يُسْهم في حلّ هذه الإشكاليّة المفهوميّة التي اضطرم من حولها، ولا يزال يضطرم، كثيرٌ من الجدل الْمُفْضي، في بعض أطواره، إلى حدّ الخصومة العقيمة، على حدّ تعبير قريماس.

ذلك، وإنّ مصطلح «السِّيمَائيّة» Sémiologie لم يكن مستعمَلاً، في بداية الأمر، إلاّ في الحقل الطّبّيّ حيث يعني دراسة الأعراض المَرَضيّة Symptômes des maladies (33). والحق أنّه لا يبرح، إلى يومنا هذا، فرعاً طبّيّاً قائماً يُدارِسه الطّلاّب في بعض مراحل التعليم الطّبيّ. غير أنّ مصطلح «السِّمْيُوتيكا» Sémiotique كان، هو أيضاً، جارياً في لغة الطبّ أثناء القرن الثامن عشر بمعنى «معرفة السّمات» Connaissance des signes (34).

غير أنّ جوليا كرِسْتيفا كانت لا تزال ترى أنّ المصطلحيْن الاِثنين مجرّد مترادفين، ولا يعني أنّ أحدَهما يتّخذ له معنىً غيرَ معنى الصِّنْو الآخَر حيث كتبت مقالتها في الموسوعة العالميّة، فذكرت في مطلعها قائلة: «تسعى السِّيمَائيّة La sémiologie ، أو «السّميوتيكا» La sémiotique اليوم إلى الانْبِنَاءِ على أساسٍ أنها عِلم للمعاني».(35) وقد تكرّرت عباراتها القائمة على «أو» التخييريّة جملة مرّاتٍ في هذه المقالة، وفي كتابات أخرى لها أيضاً. بيد أنّ المنظّرة الفرنسيّة لا تلبث أن تترك مصطلح Sémiotique (السّميوتيكا) دون تعليل، فإذا هي لا تكاد تستعمل إلاّ مصطلح Sémiologie (السِّيمَائيّة) الذي كانت جعلته، من وجهة أخرى، عنواناً لمقالتها المومَأ إليها آنفاً.

32 - Ibid.

33 - Id., p.123.

34 - Id., p.133.

35 - J. Kristeva, op. cit.

وعلى أنّ قريماس أيضاً يعود ليقرّر بأنّ مصطلح «السّيمائيّة» يظلّ قائماً بجانب «السّيمَائيّات» (بالجمع) Sémiotiques, Semiotics ، وهو يأتي، من الوجهة المعرفيّة، لتحديد نظريّة اللغة ومطبّقاتها على عامّة المجموعات الدّالّة.[36]

ولقد اتّفق السّيمَائيّون على أنّ استعمال هذا المفهوم في العصر الحديث يرجع إلى دو صوسير الذي كان يعني به الدّراسة العامّة لأنساق السّمات.[37] وعلى أنْ لا ينبغي إبعادُ شارل بيرس من هذا الاعتبار إذْ يُعَدُّ أحدَ أكبرِ المؤسسين لعلم السمة وفلسفتها.[38]

ولّما كانت السّيمَائيّة جاءت في أصل وضعها لتفسير الرموز، وفكّ الألغاز اللغويّة – على غرار تفسير الأعراض المَرَضيّة التي تظهر على المريض– المتمحّضة للدلالة النوعيّة لكلٍّ سمة لفظيّة عبر الشبكة اللّغويّة المستخدَمة في خِطابٍ من الأَخْطِبَة (ولا أقول: «خطابات»[39])؛ فإنّه لم يكن مناصٌ من امتدادها إلى اللّغة من حيث هي إبداع: فإنّ هناك من يُطلق على هذا الخطاب «السيمائيّة الأدبيّة» التي لاحظ قريماس بأنّ عدداً كبيراً من الباحثين بدءوا يدرسون هذا الحقل[40]؛ وهي المسألة التي سنتوقّف لديها بعد حين في هذا الفصل. ويمكن تركيب ما تقدّم من السعي فنقول:

1. كأنّ السيمَائيّات (Sémiotiques, Semiotics)، بالقياس إلى السيمائيّة - (Sémiologie, Semiotics) على أساس أنّها تعالج خصوصيّات الحقل– بمثابة اللّغة من اللّسان.

2. ترتبط السّيمَائيّات، أساسا، بالثقافة الأنجلو/أمريكيّة (لوك، وبيرس خصوصاً)، في حين يرتبط مفهوم السّيمائية (السّمْيولوجيا) بالثقافة الفرنسيّة (قريماس، بارط، كرستيفا) (على الرغم من أنّ قريماس عنون معجمه السّيمائيّ بمصطلح «السميوتيكا»).

---

36 - Cf. Courtés et Greimas, op. cit., p.335-336. 1

37 - Ibid. 1

38 - Cf. Langages (Revue), Larousse, Paris, n58, juin 1980. 1

39 - يجمع فِعال الدالّ على المذكّر على أفعلة مثل: فراش أفرشة، وحمار أحمرة، ولسان ألسنة (لمن ذكّره)، (ينظر المبرد، الكامل في اللّغة والأدب، 1. 50).

40 - Cf. Greimas, in Le Monde, Paris, du 07 juin 1974. 1

3. يبدو أنّ مصطلح «السّميوتيكا» أقدم وجوداً، وأعرق ميلاداً (1555) من مصطلح «السيمائيّة» (السميولوجيا حتى نُزيل اللّبس) الذي لم يتداوله دو صوسير إلاّ زهاءَ سنة 1910.

4. إنّ مفهوم السيمَائيّة يرتبط، أساساً، بعلم اللّغة، باللّسانيّات؛ في حين يرتبط مفهوم «السيمَائيات» بالفلسفة والمنطق في حال، والتّطبيقات الأدبيّة والسرديّة في حال أخراةٍ.

وكذلك ابتدأت السيمائيّة طبّيّةً فلسفيّة، ثمّ لغويّة ولسانيّاتيّة، ثمّ تشعّبتْ إلى أدبيّة، مع احتفاظها بوضعها اللسانيّاتي؛ حيث الآن عنايةٌ شديدةٌ تسِم سلوك المحلّلين والمتعاملين مع النصوص الأدبيّة من المعاصرين الذين تلقّوا مفهوم السّيمائيّة فجاءوا به إلى النص الأدبيّ ليقرؤوه، في ضوئه، بشيء كثير من القدرة الفكريّة والبراعة المنهجيّة فاقت كلّ الاهتمامات الأُخَرِ التي يُبديها أصحاب الحقول الأخرِ من العلوم...